مجموعة سيرة الرسول ﷺ

إشراف
محمود أحمد برانق

(٢٢)

غزوة حنين

الطبعة الثالثة

دار المعارف

obeikandl.com

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

obeikandl.com

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّه كَانَ تَوَّابًا) .

أَقَامَ النَّبِىُّ بِمَكَّةَ بَعْدَ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِفَتْحِهَا خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا ، وَأَهْلُهَا يَأْتُونَ إِلَيْهِ أَفْوَاجًا وَجَمَاعَاتٍ ، يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيُسْلِمُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ وَالنَّبِىُّ لا يَكُفُّ عَنِ التَّسْبِيحِ بِحَمْدِ اللهِ وَشُكْرِهِ عَلَى مَا فَتَحَ عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ بِفَتْحِ مَكَّةَ بَلَدِهِمُ الْحَرَامِ الَّذِى ظَلُّوا نَحْوًا مِنْ ثَمَانِى سَنَوَاتٍ لا يَسْتَطِيعُونَ دُخُولَه ، وَلا يَقْدِرُونَ عَلَى زِيارَةِ كَعْبَتِهِمْ ، وَحَجِّ بَيْتِ اللهِ ، لِمَا كَانَ بَيْنَهُمْ

obeikandl.com

وَبَيْنَ قُرَيْشٍ مِنْ خِلَافٍ وَعَدَاءٍ .

وَفِى خِلَالِ هَذِهِ الْخَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا الَّتِى قَضَاهَا الرَّسُولُ بِمَكَّةَ بَعَثَ بِرُسُلٍ إِلَى مَا حَوْلَهَا مِنْ جِهَاتٍ يَدْعُونَ فِيهَا لِلإِسْلَامِ ، وَيَتَوَلَّوْنَ هَدْمَ ما بِهَا مِنْ أَصْنَامٍ ؛ فَبَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى الْعُزَّى فَهَدَمَهَا ، وَبَعَثَ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ إِلَى سُوَاعَ صَنَمِ هُذَيْلٍ فَهَدَمَهُ ، وَبَعَثَ إِلَى ذِى الْكَفَّيْنِ وَمَنَاةَ مَنْ هَدَمَهُا .

وَدَخَلَ فِى الإِسْلَامِ وَاسْتَجَابَ لِرُسُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بَعْدَ أَنْ عَلِمُوا بِإِسْلَامِ أَكْثَرِ أَهْلِ قُرَيْشٍ . وَكَانَ فِيمَن بَعَثَهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ لِلدَّعْوَةِ لِلإِسْلَامِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ : بَعَثَهُ إِلَى بَنِى جَذِيمَةَ فِى جَمَاعَةٍ مِمَّنْ أَسْلَمَ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ . وَرَفَعَ بَنُو جَذِيمَةَ أَسْلِحَتَهُمْ حِينَ رَأَوْا خَالِدًا وَمَنْ مَعَهُ مُقْبِلِينَ عَلَيْهِمْ ، وَتَهَيَّئُوا لِقِتَالِهِمْ ، فَصَاحَ خَالِدٌ عَلَيْهِمْ :

ضَعُوا السِّلَاحَ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ أَسْلَمُوا .

وَتَرَدَّدَ بَنُو جَذِيمَةَ فِيمَا يَفْعَلُونَ ، فَقَالَ لَهُمْ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُدْعَى جَحْدَمًا لَمَّا

رَأَى تَرَدُّدَهُمْ :

وَيْلَكُمْ يَا بَنِي جَذِيمَةَ ! إِنَّهُ خَالِدٌ وَاللهِ ! مَا بَعْدَ السِّلاَحِ إِلاَّ الإِسَارُ . وَمَا بَعْدَ الإِسَارِ إِلاَّ ضَرْبُ الأَعْنَاقِ ، وَاللهِ لاَ أَضَعُ سِلاَحِي أَبَدًا .

فَأَجَابَ بَعْضُهُمْ : يَاجَحْدَمُ ، أَتُرِيدُ أَنْ تَسْفِكَ دِمَاءَنَا ؟ إِنَّ النَّاسَ قَدْ أَسْلَمُوا . وَوُضِعَتِ الْحَرْبُ . وَآمَنَ النَّاسُ . . . ! !

وَمَا زَالُوا بِهِ حَتَّى وَضَعَ سِلاَحَهُ . وَوَضَعَ مَعَهُ مَنْ كَانُوا يُؤَيِّدُونَ الْقِتَالَ سِلاَحَهُمْ . وَسَلَّمُوا لِخَالِدٍ وَهُمْ يَقُولُونَ : صَبَأْنَا ! صَبَأْنَا . . ! ! أَيْ خَرَجْنَا عَنْ دِينِنَا .

عِنْدَئِذٍ أَمَرَ خَالِدٌ بِهِمْ فَكُتِّفُوا ، وَعَرَضَهُمْ عَلَى السَّيْفِ ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ عَدَدًا غَيْرَ قَلِيلٍ .

وَبَلَغَ الرَّسُولَ مَا فَعَلَ خَالِدٌ بِبَنِي جَذِيمَةَ بَعْدَ أَنْ أَلْقَوْا بِسِلاَحِهِمْ ، فَكَانَ لَهُ فِي نَفْسِهِ وَقْعٌ شَدِيدٌ . وَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَقُولُ :

اللَّهُمَّ إِنِّى أَبرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ .

ثُمَّ دَعَا بِعَلِىِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ فَأَعْطَاهُ مَالاً وَقَالَ لَهُ :

اخْرُجْ إِلَى هٰؤُلاَءِ الْقَوْمِ ، فَانْظُرْ فِى أَمْرِهِمْ ، وَاجْعَلْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيْكَ .

فَخَرَجَ عَلِىٌّ إِلَى بَنِى جَذِيمَةَ ، فَدَفَعَ إِلَيْهِمْ دِيَةَ قَتْلاَهُمْ ، وَمَا تَلِفَ لَهُمْ مِنْ مَالٍ وَمَتَاعٍ ، فَلَمَّا لَمْ يَبْقَ لِبَنِى جَذِيمَةَ دَمٌ وَلاَ مَالٌ إِلاَّ وَدَاهُ – دَفَعَ دِيَتَهُ – وَقَدْ تَبَقَّى مَعَهُ مَبْلَغٌ مِنَ الْمَالِ ، دَفَعَهُ إِلَيْهِمْ وَهُوَ يَقُولُ :

إِنِّى أُعْطِيكُمْ هٰذِهِ الْبَقِيَّةَ مِنْ هٰذا الْمَالِ احْتِياطًا لِرَسُولِ اللهِ مِمَّا لاَ يَعْلَمُ وَلاَ تَعْلَمُونَ .

وَعَادَ عَلِىٌّ إِلَى مَكَةَ فَأَخْبَرَ الرَّسُولَ بِمَا فَعَلَ ، فَأَقَرَّهُ عَلَيْهِ .

وَلَمَّا أَرَادَ النَّاسُ أَنْ يَنَالُوا مِنْ خَالِدٍ لِمَا كَانَ مِنْهُ قَالَ الرَّسُولُ : لا تَسُبُّوا خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، فَإِنَّمَا هُوَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ سَلَّهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ .

obeikandl.com

وَهكَذَا طُهِّرَتْ مكَّةُ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الأَصْنَامِ وَالأَوْثَانِ ، حَتَّى لَكَانَ النَّاسُ يُسَارِعُونَ إلى تَحْطِيمِ مَا بِبُيُوتِهِمْ مِنْهَا وَهُمْ يَقُولُونَ :

لَقَدْ كُنَّا مِنْكَ فى غُرُورٍ . . . ! !

وَأَقَامَ الرَّسُولُ عَلَى أَهْلِ مكَّةَ مَنْ يُعَلِّمُهُمْ وَيُفَقِّهُهُمْ فى الدِّينِ ، وَأَقَرَّ سِقَايَةَ الْحَاجِّ مِنْ زَمْزَمَ لِعَمِّهِ الْعَبَّاسِ ، وَأَقَرَّ عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ وَأَوْلاَدَهُ مِنْ بَعْدِهِ عَلَى سَدَانَةِ الْكَعْبَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ يَأْخُذُهَا مِنْهُمْ إِلاَّ مُعْتَدٍ ظَالِمٌ .

ثُمَّ انْصَرَفَ النَّبِىُّ إلى التَّفْكِيرِ فى أَمْرِ قَبَائِلِ هَوَازِنَ ، وَإِلَى مَا وَصَلَ إلى عِلْمِهِ مِنْ عَمَلِهَا عَلَى جَمْعِ الْجُمُوعِ لِمُحَارَبَتِهِ ، فَرَأَى أَنْ يَسِيرَ إِلَيْهَا بِجُمُوعِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ مَعَهُ قَبْلَ أَنْ تُعِدَّ عُدَّتَهَا ، وَتَأْخُذَ لِلْحَرْبِ أُهْبَتَهَا .

وَعَلَى ذٰلِكَ غَادَرَ النَّبِىُّ مكَّةَ فى اثْنَىْ عَشَرَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ بَعْدَ أَنِ انْضَمَّ إلى جَيْشِهِ الَّذِى أَتَى بِهِ لِفَتْحِ مكَّةَ أَلْفَانِ مِنْ أَهْلِهَا ، وَقَدْ تَزَوَّدُوا جَمِيعًا بِالزَّادِ وَالْعَتَادِ .

وَسَارَ هٰذا الْجَيْشُ الْعَرَمْرَمُ الكَبِيرُ الَّذِى لَمْ تَشْهَدْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ جَيْشًا مِثْلَهُ لِلْمُسْلِمِينَ وَقَدْ مَلَكَ رِجَالَهُ الزَّهْوُ وَالإِعْجابُ ، حَتَّى لَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :

لَنْ نُغْلَبَ الْيَوْمَ عَنْ قِلَّةٍ . . !

لَنْ نُغْلَبَ الْيَوْمَ لِكَثْرَتِنا . . !

obeikandl.com

أَمَّا هَوَازِنُ فَكَانَ قَدْ بَلَغَها مَا أَصَابَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ نَصْرٍ بِفَتْحِ مَكَّةَ ، فَأَسْرَعُوا تَحْتَ إِمْرَةِ مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ النَّصْرِيِّ . فَأَهَابُوا بِحُلَفَائِهِمْ مِنْ ثَقِيفٍ وَمِنْ غَيْرِهَا مِنَ الْقَبَائِلِ الْمُوَالِيَةِ لَهُمْ . فَجَمَعُوا مِنْهَا الْجُمُوعَ عَلَى عَجَلٍ لِلْخُرُوجِ إِلَى رَسُولِ اللهِ وَاعْتِرَاضِ طَرِيقِهِ قَبْلَ أَنْ يَسِيرَ هُوَ إِلَيْهِمْ لِتَحْطِيمِ أَصْنَامِهِمْ ، وَالْقَضَاءِ عَلَى وَثَنِيَّتِهِمْ .

وَسَارَتْ جُمُوعُ هٰذِهِ الْقَبَائِلِ حَتَّى تَجَمَّعَتْ جُمُوعُهَا بِسَهْلِ أُوطَاسَ . وَبَيْنَ جَلَبَةِ الرِّجَالِ ، وَرُغَاءِ الإِبِلِ ، وَنُهَاقِ الْحَمِيرِ ، كَانَ يُسْمَعُ أَيْضًا أَصْوَاتُ

obeikandl.com

النِّسَاءِ ، وَبُكَاءُ الأَطْفَالِ ، وَثغَاء الشِّياهِ .

وَعَجِبَ مما سَمِعَ شَيْخٌ كَبِيرٌ هُوَ دُرَيْدُ بْنُ الصمَّةِ ، خَرَجَ فِى قَوْمِهِ مِنْ بَنى جُشَمٍ فى هَوْدَجٍ مَكْشُوفٍ وَلَا نَفْعَ لَهُ فى الْحَرْبِ إلاَّ إبْدَاء الرَّأْىِ لِكَثْرَةِ مَا جَرَّب ، وَخَاضَ مِنْ مَعارِكَ ، وَشَاهَدَ مِنْ حُرُوبٍ . فَسَأَلَ :

مَا لِى أَسْمَعُ رُغَاءَ الْبَعِيرِ ، وَنُهَاقَ الْحَمِيرِ ، وَبُكَاءَ الصَّغِيرِ ، وَثُغَاءَ الشَّاةِ ؟ !

قِيلَ لَهُ : سَاقَ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ مَعَ النَّاسِ أَمْوَالَهُمْ وَنِساءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ .

قَالَ : ادْعُوا إلَىَّ مَالِكًا .

فَلَمَّا دُعِىَ إلَيْهِ سَأَلَهُ : لِمَ سُقْتَ يَامَالِكُ مَعَ النَّاسِ أَمْوَالَهُمْ وَأَبْنَاءَهُم وَنِسَاءَهُمْ ؟ ! أَجَابَ مَالِكٌ : أَرَدْتُ أَنْ أَجْعَلَ خَلْفَ كُلِّ رَجُلٍ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ لِيُقَاتِلَ عَنْهُمْ .

قَالَ دُرَيْدٌ : وَهَل يَرُدُّ الْمُنْهَزِمَ شَىْءٌ إذَا ما انْهَزَمَ ؟ ! إنَّها إنْ كَانَتْ لَكَ لَمْ

obeikandl.com

يَنْفَعُكَ إلاَّ رَجُلٌ بِسَيْفِهِ وَرُمْحِهِ . وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْكَ فُضِحْتَ فى أَهْلِكَ وَمَالِكَ ! !

وَكَثُرَ الْكَلَامُ . وَاشْتَدَّ الْجَدَلُ فى هٰذَا وَفِى غَيْرِهِ بَيْنَ الشَّيْخِ الْمُعَمَّرِ الَّذِى عَرَكَتْهُ السِّنُونَ . وَحَنَّكَتْهُ التَّجَارِبُ ؛ وَبَيْنَ الشَّابِّ مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ الَّذِى لا يَزِيدُ عَلَى الثَّلَاثِينَ سَنَةً ، حَتَّى قَالَ مَالِكٌ لِدُرَيْدٍ غَاضِبًا :

واللهِ ما أَفْعَلُ مَا تُشِيرُ بِهِ . إِنَّكَ قَدْ كَبِرْتَ وَكَبِرَ عَقْلُكَ !

ثُمَّ وَجَّهَ خِطَابَهُ لِقَوْمِهِ : وَاللهِ لَتُطِيعُنِّى يَامَعْشَرَ هَوَازِنَ ، أَوْ لَأَتَّكِئَنَّ عَلَى سَيْفِى هٰذَا حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ ظَهْرِى .

فَأَظْهَرَ لَهُ الْقَوْمُ الطَّاعَةَ لأَمْرِهِ ، وَالِامْتِثَالَ لِقِيَادَتِهِ .

وَعَلَى ذٰلِكَ انْفَرَدَ مَالِكٌ بِالْقِيَادَةِ وَإِبْدَاءِ الرَّأْىِ . وَأَرْسَلَ بِعُيُونٍ لَهُ يَتَجَسَّسُونَ أَخْبَارَ مُحَمَّدٍ لِيُعِدَّ جَيْشَهُ لِلِقَائِهِ وَالإِيقَاعِ بِهِ .

وَكَانَتْ عُيُونُ مُحَمَّدٍ قَدْ أَعْلَمَتْهُ بِمَا جَمَعَ وَحَشَدَ لَهُ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ .

وَأَخْبَرَتْهُ بِالْمَكَانِ الَّذِى تَجَمَّعَتْ وَاحْتَشَدَتْ فِيهِ هٰذِهِ الْجُمُوعُ . فَسَارَ بِجَيْشِهِ حَتَّى أَشْرَفَ عَلَى وَادِى حُنَيْنٍ .

وَأَقَامَ الْمُسْلِمُونَ لَيْلَةً يُنَظِّمُونَ جَيْشَهُمْ . وَيُرَتِّبُونَ كَتَائِبَهُمْ . حَتَّى إِذَا مَا قَارَبَ الْفَجْرُ أَنْ يَنْبَثِقَ . تَحَرَّكَ الْجَيْشُ فِى كَتَائِبَ مُتَرَاصَّةٍ ، تَتَقَدَّمُهَا قَبَائِلُ بَنِى سُلَيْمٍ يَقُودُهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ، وَفِى مُؤَخِّرَتِهَا النَّبِىُّ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ .

وَفِى غُبْشَةِ الْفَجْرِ اجْتَازَ الْجَيْشُ مَضِيقَ حُنَيْنٍ مُنْحَدِرًا فِى وَادٍ مُنْحَدِرٍ مِنْ أَوْدِيَةِ تِهَامَةَ . وَبَيْنَمَا هُمْ فِى انْحِدَارِهِمْ هٰذَا ، وَقَدْ سُدَّ بِصُفُوفِهِمُ الْوَادِى عَلَى سِعَتِهِ ، إِذَا بِهِمْ قَدِ اخْتَلَطَ حَابِلُهُمْ بِنَابِلِهِمْ . وَإِذَا بِهِمْ قَدْ أَصَابَهُمْ رُعْبٌ قَاتِلٌ وَهَلَعٌ شَدِيدٌ ، جَعَلَهُمْ يَرْجِعُونَ الْقَهْقَرَى هَارِبِينَ وَهُمْ يَصِيحُونَ صَيْحَاتِ هَلَعٍ وَرُعْبٍ وَخَوْفٍ . . . ! !

مَاذَا حَدَثَ لَهُمْ ؟ وَمَا الَّذِى أَصَابَ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ ؟ !

مَا بَالُهُمْ يَفِرُّونَ لَا يَلْوُونَ عَلَى شَىْءٍ وَقَدْ كَانُوا مُنْذُ قَلِيلٍ يَفْخَرُونَ بِكَثْرَتِهِمْ

وَيَتِيهُونَ . . ؟ !

كانَ مَا حَدَثَ لَهُمْ وَأَصَابَهُمْ هُوَ أَنَّ وَابِلاً مِنَ النَّبَالِ انْصَبَّ عَلَيْهِمْ فَجْأَةً مِنْ بَيْنِ ثَنِيَّاتِ الْوَادِى ، وَمِنْ بَيْنِ قِمَمِ حُنَيْنٍ !

وَكَانَ هٰذا تَدْبِيرَ مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ الَّذِى دَبَّرَهُ لِيَنَالَ بِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ ، وَلِيَقْضِىَ بِهِ عَلَى هَيْبَةِ الْمُسْلِمِينَ .

فَلَقَدْ أَمَرَ رِجَالَهُ أَنْ يَكْمُنُوا لَهُمْ بَيْنَ مُنْعَطَفَاتِ الْوَادِى ، وَبَيْنَ مُنْفَرَجَاتِ جَبَلِ حُنَيْنٍ ، حَتَّى إِذَا مَا انْحَدَرُوا إِلَى الْوَادِى شَدُّوا عَلَيْهِمْ شَدَّةَ رَجُلٍ واحِدٍ ، لِيُشِيعُوا الذُّعْرَ فى نُفُوسِهِمْ ، وَيُثِيرُوا الاِضْطِرَابَ فى صُفُوفِهِمْ ، وَكَانَ لِمَالِكٍ مَا أَرَادَ . . !

وَكَرَّ الْمُسْلِمُونَ يَدْفَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، يَتَزَاحَمُونَ إِلَى الْهَرَبِ وَيَتَسَابَقُونَ إِلَى الْفِرَارِ .

وَانْحَازَ النَّبِىُّ إِلَى يَمِينِ الْوَادِى يُنَادِيهِمْ وَهُمْ يَمُرُّونَ بِهِ مُوَلِّينَ فَزِعِينَ : إِلَى

أَيْنَ أَيُّها النَّاسُ ؟ ! هَلُمُّوا إِلَيَّ أَنَا رَسُولُ اللهِ . أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ !

وَضَاعَ صَوْتُ النَّبِيِّ بَيْنَ جَلَبَةِ الرِّجَالِ . وَضَوْضَاءِ أَصْوَاتِهِمُ الْخَائِفَةِ الْهَلِعَةِ .

وَتَوَالَى مُرُورُ جَمَاعَاتِ الْمُسْلِمِينَ الْمُدْبِرَةِ مِنْ أَمَامِ النَّبِيِّ . وَمِنْ وَرَائِهَا انْحَدَرَتْ هَوَازِنُ مِنْ مَكَامِنِهَا مِنْ قِمَمِ الْجَبَلِ . وَخَرَجَتْ مِنْ مَرَابِضِهَا بَيْنَ شِعَابِ الْوَادِي يَقُودُ جُمُوعَهَا رَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ . بِيَدِهِ رُمْحٌ طَوِيلٌ . ثَبَّتَ بِطَرَفِهِ رَايَةً سَوْدَاءَ . كُلَّمَا أَدْرَكَ الْمُسْلِمِينَ طَعَنَهُمْ بِرُمْحِهِ . وَإِذَا فَاتَهُ ذٰلِكَ رَفَعَ رُمْحَهُ لِمَنْ وَرَاءَهُ مِنْ قَوْمِهِ لِيَتَّبِعُوهُ .

وَرَأَى مَا حَلَّ بِالْمُسْلِمِينَ جَمَاعَةُ قُرَيْشٍ الَّذِينَ أَسْلَمُوا بِالأَمْسِ . وَالَّذِينَ لَمْ يُسْلِمُوا بِقُلُوبِهِمْ . وَإِنَّمَا خَرَجُوا مَعَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ مُقَاتِلِينَ يَبْغُونَ الْغَنِيمَةَ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ سَاخِرًا شَامِتًا : لا تَنْتَهِي هَزِيمَتُهُمْ دُونَ الْبَحْرِ .

وَقَالَ شَيْبَةُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ : الْيَوْمَ أُدْرِكُ ثَأْرِي مِنْ مُحَمَّدٍ .

وَقَالَ كَلَدَةُ بْنُ حَنْبَلٍ : أَلاَ بَطَلَ سِحْرُ مُحَمَّدٍ الْيَوْمَ . . ! !

فَرَدَّ عَلَيْهِ أَخُوهُ صَفْوَانُ : اسْكُتْ ، فَضَّ اللهُ فَاكَ ! فَوَاللهِ لأَنْ يَرُبَّنِي رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَحَبّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَرُبَّنِي رَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ .

يا أَللهُ . . ! لِمَ تَخَلَّيْتَ عَنْ رَسُولِكَ ، بَعْدَ مَا أَتْمَمْتَ عَلَيْهِ نَصْرَكَ بِفَتْحِ مَكَّةَ ؟ !

يَارَبِّ . . ! لِمَ بَثَثْتَ الرُّعْبَ فِى قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَمَا هَدَأَتْ نُفُوسُهُمْ واسْتَقَرَّتْ قُلُوبُهُمْ لَمَّا رَأَوْا تَجَمُّعَهُمْ وَكَثْرَتَهُمْ ؟ !

وَفِى هَذِهِ اللَّحْظَةِ الْعَصِيبَةِ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُسْلِمِينَ ، الدَّقِيقَةِ بِالنِّسْبَةِ لِتَقْرِيرِ مَصِيرِهِمْ . الْحَاسِمَةِ بِالنِّسْبَةِ لِبَقَاءِ هَيْبَتِهِمْ أَوْ ضَيَاعِهَا – لَمْ يَيْأَسْ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، وَلَمْ يَدُرْ بِخَلَدِهِ أَنَّ رَبَّهُ يَتَخَلَّى عَنْهُ !

وَثَبَتَ مُحَمَّدٌ فِى مَكَانِهِ وَقَدْ جَرَّدَ سَيْفَهُ يُوَاجِهُ سَيْلَ الْعَدُوِّ الْمُتَدَفِّقِ نَحْوَهُ ، وَثَبَتَ مِنْ حَوْلِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ، فِيهِمْ : أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ بْنُ

الْخَطَّابِ ؛ وَنَفَرٌ مِنْ أَهْلِهِ ، فِيهِمْ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَبُو سُفْيَانَ بْنِ الْحارِثِ ، وَقَدْ أَمْسَكَ الْعَبَّاسُ وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحارِثِ بِلِجَامِ بَغْلَةِ الرَّسُولِ .

وَقَالَ الرَّسُولُ لِلْعَبَّاسِ ، وَكَانَ الْعَبَّاسُ رَجُلا جَسِيمًا قَوِيَّ الصَّوْتِ : يَا عَبَّاسُ : اُصْرُخْ : يَامَعْشَرَ الأَنْصَارِ الَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا ، يَامَعْشَرَ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ بايَعُوا تَحْتَ الشَّجَرَةِ .

وَنَادَى الْعَبَّاسُ بِصَوْتِهِ الْجَهْورِيِّ : إِنَّ مُحَمَّدًا حَيٌّ فَهَلُمُّوا يَامَعْشَرَ . . .

وَتَرَدَّدَ نِدَاءُ الْعَبَّاسِ فِى جَنَبَاتِ الْوَادِى ، وَسَمِعَ الْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ تارِكِينَ دِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، وَسَمِعَ الأَنْصَارُ الَّذِينَ نَصَرُوا النَّبِىَّ وَعَاوَنُوهُ حِينَمَا اضْطَهَدَهُ قَوْمُهُ مِنْ قُرَيْشٍ .

أَيَتَخَلَّوْنَ عَنْ مُحَمَّدٍ الْيَوْمَ ؟ ! أَيَخْذُلُونَهُ وَيُسْلِمُونَهُ ؟ ! أَيُضَيِّعُونَ جِهَادَ السِّنِينَ فِى سَبِيلِ دِينِ اللهِ ؟ ! !

لاَ ، هٰذا لَنْ يَكُونَ . . . ! وَأَنْزَلَ اللهُ فى قُلُوبِهِمُ السَّكِينَةَ بَعْدَ الْفَزَعِ ، وَمَلأَ نُفُوسَهُمْ بِالثِّقَةِ بَعْدَ الْخَوْفِ .

وَانْدَفَعَ فَرِيقٌ مِنَ الْمُهاجِرِينَ ، وَفَرِيقٌ مِنَ الأَنْصَارِ ، يُلَبُّونَ نِداءَ الرَّسُولِ مُجِيبِينَ :

لَبَّيْكَ ! لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ !

وَنَزَلَ الْكَثِيرُونَ مِنْهُمْ عَنْ إِبِلِهِمْ حِينَ عَزَّ عَلَيْهِمُ الرُّجُوعُ بِهَا ، وَأَسْرَعُوا إِلَى نَاحِيَةِ الرَّسُولِ يُلَبُّونَ نِداءَهُ .

لَكَ الْحَمْدُ وَلَكَ الشُّكْرُ يَارَبِّ . . . !

وَاقْتَحَمَ الْمُسْلِمُونَ يُوَاجِهُونَ الْعَدُوَّ ، وَفِى مُقَدِّمَتِهِمْ عَلِى بْنُ أَبِى طَالِبٍ ، وَأَسْرَعَ عَلَىٌّ يُؤَازِرُهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ إِلَى حَامِلِ رَايَةِ هَوَازِن ، فَانْقَضَّا عَلَيْهِ فَصَرَعَاهُ .

وَتَجالَدَ النَّاسُ ، وَحَمِىَ الْقِتَالُ ، وَنَظَرَ النَّبِىُّ إِلَى جَيْشِهِ وَقَدِ ارْتَدَّتْ إِلَى

obeikandl.com

رِجَالِهِ عَزِيمَتُهُمْ . وَعَادَ إِلَيْهِمْ بَأْسُهُمْ وَقُوَّتُهُمْ ، فَاشْتَبَكُوا مَعَ أَعْدَائِهِمْ فِى قِتَالٍ حَادٍّ عَنِيفٍ ، فَقَالَ : الآنَ حَمِى الْوَطِيسُ .

ثُمَّ أَخَذَ حَفْنَةً مِنَ الْحَصَى ، فَحَصَبَ بِهَا وُجُوهَ الْمُشْرِكِينَ وَهُوَ يَقُولُ : شَاهَتِ الْوُجُوهُ ! اللَّهُمَّ إِنِّى أَنْشُدُكَ ما وَعَدْتَنى ، اللَّهُمَّ لا يَنْبَغِى عَلَيْهِمْ أَنْ يَظْهَرُوا عَلَيْنا .

وَدَارَتِ الدَّائِرَةُ ، وَانْعَكَسَتِ الآيَةُ ، وَأَصْبَحَ الْمُشْرِكُونَ وَلاهَمَّ لَهُمْ إِلا الْفِرَارُ مِنْ وُجُوهِ الْمُسْلِمِينَ ، وَالنَّجَاةُ بِأَرْوَاحِهِمْ وَالْخَلاصُ بِأَنْفُسِهِمْ .

وَاتَّبَعَ الْمُسْلِمُونَ هَوَازِنَ وَحُلَفَاءَهَا فِى فِرَارِهِمْ يُطَارِدُونَهُمْ وَيُقَاتِلُونَهُمْ أَشَدَّ قِتَالٍ ، وَالنَّبِىُّ يُشَجِّعُهُمْ بِقَوْلِهِ : مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً فَلَهُ سَلَبُهُ .

وَكَانَتْ نِعْمَةً مِنَ اللهِ جَزِيلَةً تِلْكَ الَّتِى أَوْلاهَا لِلْمُسْلِمِينَ . . فَأَمَّنَهُمْ بَعْدَ خَوْفٍ ، وَثَبَّتَهُمْ بَعْدَ نُكُوصٍ .

وَهَكَذَا كَانَ النَّصْرُ فِى جَانِبِ الْمُسْلِمِينَ ، بَعْدَ مَا ظَنَّ بِهِمُ الظُّنُونُ ، وَبَعْدَ

مَا شَمَتَ بِهِمُ الشَّامِتُونَ ! وَحَتَّى جَرُؤَ شَيْبَةُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ أَبِى طَلْحَةَ عَلَى أَنْ يَقْصِدَ إِلَى النَّبِى يُرِيدُ قَتْلَهُ لِيَأْخُذَ ثَأْرَهُ لأَبِيهِ الَّذِى قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ حَتَّى إِذَا مَا كَانَ بِالْقُرْبِ مِنْهُ غَشِيَتْهُ غَاشِيَةٌ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْهَا أَنْ يَرْفَعَ سَيْفَهُ عَلَى النَّبِىِّ ، فَتَقَهْقَرَ ؛ وَعِنْدَئِذٍ سَمِعَ صَوْتَ النَّبِى يَقُولُ لَهُ : يَا شَيْبُ ! اُدْنُ مِنِّى ! فَدَنَا شَيْبَةُ مِنَ الرَّسُولِ وَهُوَ مُطْرِقٌ لاَ يَسْتَطِيعُ رَفْعَ طَرْفِهِ إِلَيْهِ ، فَوَضَعَ الرَّسُولُ يَدَهُ عَلَى صَدْرِ شَيْبَةَ وَهُوَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ أَذْهِبْ عَنْهُ الشَّيْطَانَ !

فَرَفَعَ شَيْبَةُ رَأْسَهُ وَقَدْ أَضْحَى الرَّسُولُ أَعَزَّ لَدَيْهِ مِنْ حَيَاتِهِ . وَقَالَ الرَّسُولُ : يَاشَيْبُ ! قَاتِلِ الْكُفَّارَ !

فَتَقَدَّمَ شَيْبَةُ يُقَاتِلُ بَيْنَ يَدَىِ الرَّسُولِ وَهُوَ يَوَدُّ أَنْ يَقِيَهُ بِنَفْسِهِ . وَفَرَّ الْمُنْهَزِمُونَ أَمَامَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ مُتَفَرِّقِينَ هُنَا وَهُنَاكَ : فَمِنْهُمْ مَنْ فَرَّ إِلَى الطَّائِفِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَارَ إِلَى نَخْلَةَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَادَ إِلَى أَوْطَاسَ حَيْثُ كَانُوا يُعَسْكِرُونَ ، لِيَنْجُوا بِمَتَاعِهِمْ وَأَوْلاَدِهِمْ . وَلَكِنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا فِى أَثَرِهِمْ يُقَاتِلُونَ

وَيَأْسِرُونَ .

فَقُتِلَ دُرَيدُ بْنُ الصِّمةِ ، قَتَلَهُ رَبِيعَةُ بْنُ رَفِيعِ السُّلَمِيِّ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الدُّغُنَّةِ ، وَهُوَ بَعْدُ غُلامٌ يَافِعٌ . وَكَانَ قَدْ أَنَاخَ بِهِ الْهَوْدَجَ وَهُوَ يَحْسِبُهُ امْرَأَةً يُرِيدُ سَلْبَهَا ، فَلَمَّا رَآهُ رَجُلاً هَمَّ بِقَتْلِهِ ، فَقَالَ لَهُ دُرَيدٌ : مَنْ أَنْتَ ؟ ! !

فَأَخْبَرَهُ رَبِيعَةُ بِاسْمِهِ ، ثُمَّ أَهْوَى عَلَيْهِ بِسَيْفِهِ ، فَلَمْ يُصِبْ مِنْهُ مَقْتَلاً ، فَقَالَ لَهُ دُرَيْدٌ : بِئْسَ مَا سَلَّحَتْكَ أُمُّكَ ! خُذْ سَيْفِي مِنْ مُؤَخَّرِ الرَّحْلِ ثُمَّ اضْرِبْ بِهِ وَارْفَعْ عَنِ الْعِظَامِ ، وَاخْفِضْ عَنِ الدِّمَاغِ ، فَإِنِّي كَذٰلِكَ كُنْتُ أَضْرِبُ الرِّجَالَ . ثُمَّ إِذَا أَتَيْتَ أُمَّكَ فَأَخْبِرْهَا أَنَّكَ قَتَلْتَ دُرَيْدَ بْنَ الصِّمة ، فَضَرَبَهُ رَبِيعَةُ فَقَتَلَهُ .

وَلَمَّا الْتَقَى رَبِيعَةُ بِأُمِّهِ وَأَخْبَرَهَا بِمَا فَعَلَ ، وَبِمَا قَالَ لَهُ دُرَيْدٌ . قَالَتْ : إِنَّمَا قَالَ ذٰلِكَ لِيُذَكِّرَنَا نِعَمَهُ عَلَيْكَ . فَوَاللهِ لَقَدْ أَعْتَقَ لَكَ أُمَّهَاتٍ ثَلاثًا : أَنَا وَأُمِّي وَأُمَّ أَبِيكَ .

وَنَهَى الرَّسُولُ الْمُسْلِمِينَ عَنْ قَتْلِ الضُّعَفَاءِ وَالنِّساءِ وَالأَوْلادِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لِشِدَّةِ حَنَقِهِمْ عَلَى مُشْرِكِي هوازنَ يَوَدُّونَ لَوْ يَقْتُلُونَ ذَرَارِيَهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّما هُمْ أَوْلادُ الْمُشْرِكِينَ .

فَكَانَ جَوَابُ الرَّسُولِ عَنْ ذٰلِكَ : أَوَلَيْسَ خِيارُكُمْ أَوْلادَ الْمُشْرِكِينَ ؟ ! كُلُّ نَسَمَةٍ تُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ حَتَّى يُعْرِبَ عَنْهَا لِسانُهَا .

وكانَتِ النِّساءُ الْمُسْلِمَاتُ مِمَّنْ خَرَجْنَ مُصَاحِباتٍ لِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ لا يَقْلِلْنَ عَنْ رِجَالِهِنَّ حَمَاسَةً فِي قِتَالِ الأَعْدَاءِ إذا وَجَدْنَ إِلَى ذٰلِكَ سَبِيلاً ، وَكُنَّ غَيْرَ رَاضِيَاتٍ وَلا مُتَسَاهِلاتٍ مَعَ مَنْ فَرَّ مِنَ الْمَعْرَكَةِ ثُمَّ لَمْ يَعُدْ إِلَيْهَا فَقَدْ قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ بِنْتُ مِلْحَانَ ، زَوْجُ أَبِي طَلْحَةَ لِلرَّسُولِ فِي ذٰلِكَ :

يَارَسُولَ اللهِ ؛ لا تَعْفُ عَنِ الَّذِينَ فَرُّوا عَنْكَ وَخَذَلُوكَ إِذَا أَمْكَنَكَ اللهُ مِنْهُمْ بَلْ تَقْتُلُهُمْ كَمَا تَقْتُلُ هٰؤلاءِ الْمُشْرِكِينَ !

فَكَانَ جَوَابُ الرَّسُولِ لَهَا يَحْمِلُ التَّسامُحَ وَيُظْهِرُ الْعَفْوَ : يا أُمَّ سُلَيْمٍ ، قَدْ

كَفَى اللهُ ، وَكَانَتْ عَافِيَتُهُ أَوْسَعَ .

وَلَمْ تَثْبُتْ فُلُولُ الْجَيْشِ الْمُنْهَزِمِ طَوِيلاً ، فَسُرْعَانَ مَا انْسَحَبَ الرِّجَالُ بَعْدَ أَنْ وَقَعَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْهُمْ فى الأَسْرِ مُخَلِّفِينَ وَرَاءَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ وَأَوْلادِهِمْ غَنِيمَةً طَيِّبَةً لِلْمُسْلِمِينَ .

أَمَّا مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ قَائِدُ جَيْشِ الْمُشْرِكِينَ فَقَدْ لَجَأَ إلى الطَّائِفِ فَتَحَرَّزَ فِيها ، وَتَحَصَّنَ بِحُصُونِها مَعَ جَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ .

وَأَمَرَ النَّبِىُّ بِجَمْعِ الْغَنَائِمِ ، وَنَادَى مُنَادِيهِ فى النَّاسِ أَنَّ :

مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يَغُلَّ « أَىْ لاَ يَأْخُذْ لِنَفْسِهِ شَيْئًا قَبْلَ الْقِسْمَةِ » .

وَجُمِعَتِ الْغَنَائِمُ ، وَأُحْصِيَتْ ، فَكَانَتْ : السَّبْىُ سِتَّةُ آلاف ، وَالإِبِلُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا ، وَالْغَنَمُ أَرْبَعُونَ أَلْفًا ، وَالْفِضَّةُ أَرْبَعَةُ آلاَفِ أُوقِيَّةٍ . وَأَمَرَ النَّبِىُّ بِنَقْلِ هٰذِهِ الْغَنَائِمِ إلى الْجِعْرَانَةِ ، وَإِقَامَةِ الْحِرَاسَةِ عَلَيْهَا ، وَأَنْ تُضْرَبَ

لِلسَّبى خِيَامٌ يَأْوُونَ إِلَيْها ، وَأَنْ يُبْتَاعَ كِسَاءٌ مِنْ مَكةَ لِمَنْ يَحْتَاجُ مِنْهُمْ إِلَى كِساءٍ . أَمَّا النَّبِىُّ فَقَدْ سَارَ بِأَصْحابِهِ الْمُقاتِلِينَ إِلى الطَّائِفِ لِحِصَارِ أَهْلِهَا مِنْ ثَقِيفٍ وَقِتالِهِمْ .

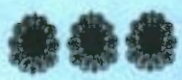

obeikandl.com

كَانَتْ ثَقِيفٌ تَعْلَمُ أَنَّ النَّبِىَّ لاَبُدَّ سَائِرٌ إِلَيْهَا . فَأَغْلَقَتْ عَلَيْهَا أَسْوَارَ مَدِينَتِهَا الْحَصِينَةِ الَّتِى اسْمُهَا الطَّائِفُ ، وَتَحَصَّنَتْ بِحُصُونِهَا الْمَنِيعَةِ ، وَأَعَدَّتْ نَفْسَهَا لِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ .

وَسَارَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِجُيُوشِهِ حَتَّى نَزَلُوا بِالْقُرْبِ مِنَ الطَّائِفِ بَعْدَ مَا نَزَلُوا وَهُمْ بِطَرِيقِهِمْ فِى بُسْتَانٍ لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِهَا ، وَبَعْدَ مَا هَدَمُوا حِصْنًا لِمَالِكِ بْنِ عَوْفٍ .

وَرَمَتْ ثَقِيفٌ مِنْ فَوْقِ حُصُونِهَا الْمُسْلِمِينَ بِنِبَالِهَا فَنَالَتْ مُعَسْكَرَهُمْ بِهَا

obeikandl.com

وَأُصِيبَ عَدَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَأَمَرَ النَّبِىُّ بالاِبْتِعَادِ عَنْ مَرْمَى النَّبْلِ . فَانْتَقَلُوا إلى مكانٍ بَعيدٍ فَلا تَنَالُهُمُ السِّهامُ .

وَتَشَاوَرَ مُحَمَّدٌ ﷺ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِيما يَتَّخِذُونَ مِنْ أَسَالِيبَ لِفَتْحِ مِثْلِ هٰذِهِ الْحُصُونِ الْمَنِيعَةِ ، وَقِتَالِ أَهْلِهَا ، وَإِجْبَارِهِمْ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْهَا .

وَأَشَارَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى النَّبِىِّ بِأَنْ يَسْتَعِينُوا عَلَى ذَلِكَ بِالْمَنْجَنِيقِ وَالدَّبَّابَاتِ ، وَأَنْ يَسْتَدْعُوا لِذٰلِكَ مِنَ الرِّجَالِ مَنْ يُحْسِنُ اسْتِخْدَامَهَا .

وَعَلَى ذٰلِكَ أَرْسَلَ النَّبِىُّ إلَى قَبِيلَةِ بَنِى دَوْسٍ مَنْ يَسْتَدْعِى بَعْضَ رِجَالِهِمْ وَكَانُوا عَلَى عِلْمٍ باسْتِخْدَامِ مِثْلِ هٰذِهِ الآلاتِ ، فَجَاءَ نَفَرٌ مِنْهُمْ وَمَعَهُمْ مُعِدَّاتُهُمْ وَآلاتُهُمْ .

وَنُصِبَ الْمَنْجَنِيقُ ، وَضُرِبَتْ بِهِ حُصُونُ الطَّائِفِ ، وَدَخَلَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَحْتَ الدَّبَّابَاتِ : وَهِىَ آلاتٌ مِنْ جِلْدٍ سَمِيكٍ وَخَشَبٍ ، يُسْتَعَانُ بِها عَلَى الاِقْتِرَابِ مِنْ حُصُونِ الْعَدُوِّ لِنَقْبِهَا ، وَزَحَفُوا بِهَا حَتَّى أَتَوْا جِدارَ الْحِصْنِ

obeikandl.com

لِيَنْقُبُوهُ . وَلٰكِنَّ أَهْلَ الطَّائِفِ الَّذِينَ كَانَ لَهُمْ إِلْمَامٌ وَدِرَايَةٌ بِأَفَانِينِ مِثْلِ هٰذَا الْقِتَالِ وَأَسَالِيبِهِ ، أَتَوْا بِقِطَعٍ مِنَ الْحَدِيدِ فَحَمَوْهَا بِالنَّارِ حَتَّى صَارَتْ مِثْلَ الْجَمْرِ ، وَأَلْقَوْا بِهَا عَلَى الدَّبَّابَاتِ فَحَرَقَتْهَا . وَخَرَجَ رِجَالُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ تَحْتِهَا يَبْغُونَ الْفِرَارَ ، فَلَحِقَتْهُمْ نِبَالُ ثَقِيفٍ ، فَقَتَلَتْ مِنْهُمْ عَدَدًا كَبِيرًا .

عِنْدَئِذٍ لَمْ يَجِدِ النَّبِيُّ بُدًّا أَنْ يَأْمُرَ رِجَالَهُ بِتَقْطِيعِ كُرُومِ أَهْلِ الطَّائِفِ وَتَحْرِيقِهَا ، وَكَانَتْ تَنْتَشِرُ فِى بَسَاتِينَ وَاسِعَةٍ خَارِجَ الْمَدِينَةِ ، وَكَانَتْ تُعْرَفُ بِطِيبِهَا وَجَوْدَتِهَا . وَذٰلِكَ حَتَّى يَجْبُرَ أَصْحَابَهَا عَلَى التَّسْلِيمِ . وَشَرَعَ الْمُسْلِمُونَ فِى تَنْفِيذِ الأَمْرِ : يَقْطَعُونَ وَيُحَرِّقُونَ . وَرَأَى أَهْلُ الطَّائِفِ مَا لَجَأَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ ، وَهُمُ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ كُرْهَهُ لِمِثْلِ ذٰلِكَ الْفِعْلِ ، وَنَهْيَهُ عَنْهُ فَنَادَوْا يُنَاشِدُونَ عَاطِفَتَهُ هٰذِهِ قَائِلِينَ :

يَا مُحَمَّدُ ، لِمَ تَقْطَعُ أَمْوَالَنَا ؟ إِمَّا أَنْ تَأْخُذَهَا إِنْ ظَهَرْتَ عَلَيْنَا ، وَإِمَّا أَنْ تَدَعَهَا لِلّٰهِ وَلِلرَّحِمِ الَّذِى بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ! !

فَأَمَرَ النَّبِىُّ بِالْكَفِّ عَنِ التَّقْطِيعِ وَالتَّحْرِيقِ . وَأَمَرَ أَنْ يُنَادُوا فِى ثَقِيفٍ أَنَّ كُلَّ مَنْ خَرَجَ إِلَيْهِ مُسْلِمًا فَهُوَ عَاتِقُهُ .

فَخَرَجَ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهَا نَحْوٌ مِنْ عِشْرِينَ رَجُلاً ، فَوَكَّلَ بِهِمْ جَمَاعَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِلْعِنَايَةِ بِأَمْرِهِمْ وَرِعَايَتِهِمْ .

وَاسْتَمَرَّ حِصَارُ الْمُسْلِمِينَ لِلطَّائِفِ نَحْوًا مِنْ شَهْرٍ . وَرَأَى النبى أَنَّ حِصَارَ الطَّائِفِ سَيَطُولُ لِمَا تَخْتَزِنُ ثَقِيفٌ عِنْدَهَا مِنْ طَعَامٍ وَمُؤَنٍ ؛ فَتَكَلَّمَ فِى ذٰلِكَ مَعَ أَبِى بَكْرٍ ، وَعَرَّفَهُ أَنَّهُ يَرَى أَنَّ الطَّائِفَ لَنْ تُفْتَحَ الآنَ . وَلَمَّا جَاءَ عُمَرَ يَسْأَلُ الرَّسُولَ عَمَّا شَاعَ مِنْ أَنَّهُ سَيَرْفَعُ عَنِ الطَّائِفِ الْحِصَارَ أَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ فِى النَّاسِ بِالاِسْتِعْدَادِ لِلرَّحِيلِ .

وَعَزَّ عَلَى النَّاسِ أَنْ يُفَكَّ الحِصَارُ عَنِ الطَّائِفِ دُونَ أَنْ يَنَالُوا مِنْهَا مَنَالاً ، فَقَالُوا لِلرَّسُولِ : يَارَسُولَ اللهِ ، اُدْعُ اللهَ عَلَى ثَقِيفٍ !

قَالَ : اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا وَأْتِ بِهِمْ .

وَانْصَرَفَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ عَنِ الطَّائِفِ والرَّسُولُ يَقُولُ لَهُمْ :
قُولُوا : آئِبُونَ إِنْ شَاءَ اللهُ . لِرَبِّنَا حَامِدُونَ .

obeikandl.com

وَتَوَجَّهَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ إِلَى الْجِعْرَانَةِ لِتَقْسِيمِ الْفَيْءِ الَّذِى أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَزْوِ حُنَيْنٍ .

وَبَيْنَمَا شَرَعَ الرَّسُولُ فِى تَقْسِيمِ الْغَنَائِمِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ . أَتَى وَفْدٌ مِنْ هَوَازِنَ مُسْلِمًا يَطْلُبُ مِنَ الرَّسُولِ رَدَّ أَمْوَالِ هَوَازِنَ وَسَبَايَاهَا وَهُمْ يَقُولُونَ :

يَا رَسُولَ اللهِ ، اُمْنُنْ عَلَيْنَا ، فَإِنَّمَا فِى السَّبْى عَمَّاتُكَ وَخَالَاتُكَ وَحَوَاضِنُكَ اللاَّتِى كُنَّ يَكْفُلْنَكَ ! وَلَوْ أَنَّا أَرْضَعْنَا وَكَفَلْنَا لِلْحَارِثِ بْنِ أَبِى شِمِرٍ أَوْ لِلنُّعْمَانِ ابْنِ الْمُنْذِرِ ، ثُمَّ نَزَلَ مِنَّا أَحَدُهُمَا بِمِثْلِ الَّذِى نَزَلْتَ بِهِ ، رَجَوْنَا عَطْفَهُ وَعَائِدَتَهُ

obeikandl.com

عَلَيْنَا . وَأَنْتَ خَيْرُ الْمَكْفُولِينَ .

فَأَجَابَ الرَّسُولُ : فَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ أَمْ أَمْوَالُكُمْ ؟

قَالُوا : يَارَسُولَ اللهِ : خَيَّرْتَنَا بَيْنَ أَهْلِنَا وَأَمْوَالِنَا ! بَلْ تَرُدُّ إِلَيْنَا نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا فَهُمْ أَحَبُّ إِلَيْنَا .

فَقَالَ الرَّسُولُ : مَالِى وَلِبَنِى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مِنهَا فَهُوَ لَكُمْ . أَمَّا مَا كَانَ لِلنَّاسِ فَسَأَسْأَلُ عَنْهُ النَّاسَ لَكُمْ ، فَإِذَا مَا صَلَّيْتُ بِهِمُ الظُّهْرَ فَقُومُوا فَاسْتَشْفِعُوا فِى أَبْنَائِكُمْ وَنِسَائِكُمْ ، فَسَأُعْطِيكُمْ عِنْدَ ذٰلِكَ وَأَشْفَعُ لَكُمْ .

فَلَمَّا صَلَّى الرَّسُولُ بِالنَّاسِ قَامَ وَفْدُ هَوَازِنَ ، فَتَكَلَّمُوا بِمَا أَمَرَهُمُ الرَّسُولُ بِهِ ، وَتَكَلَّمَ مُحَمَّدٌ ﷺ عَلَى مَسْمَعٍ مِنَ النَّاسِ ، فَأَعْلَنَ تَنَازُلَهُ عَنْ حَقِّهِ لِهَوَازِنَ وَحَقِّ بَنِى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فِى السَّبْىِ . عِنْدَئِذٍ قَامَ الْمُهَاجِرُونَ فَأَعْلَنُوا تَنَازُلَهُمْ عَنْ حَقِّهِمْ ، وَتَبِعَهُمُ الأَنْصَارُ . ثُمَّ تَوَالَتِ الْقَبَائِلُ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأَعْلَنَ بَعْضُهَا تَنَازُلَهُمْ ، وَتَمَسَّكَ بَعْضُهَا بِحَقِّهِ فِيهَا .

فَقَالَ الرَّسُولُ : أَمَّا مَنْ يُرِيدُ مِنْكُمُ التَّمَسُّكَ بِحَقِّهِ فِي هٰذَا السَّبْيِ ، فَسَأُعَوِّضُهُ عَنْ كُلِّ فَرْدٍ مِنْهُ بِسِتَّةِ فَرَائِضَ مِنْ أَوَّلِ سَبْيٍ أُصِيبُهُ بَعْدَ ذٰلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ .

فَارْتَضَى النَّاسُ حَلَّ الرَّسُولِ هٰذا ، وَتَخَلَّوْا عَنِ السَّبْيِ لِهَوَازِنَ .

وَكَانَ بِالسَّبْيِ امْرَأَةٌ عَنُفَ عَلَيْهَا الْحُرَّاسُ . فَقَالَتْ لَهُمْ :

تَعَلَّمُوا واللهِ إِنِّي لأُخْتُ صَاحِبِكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ .

فَلَمْ يُصَدِّقُوهَا حَتَّى أَتَوْا بِهَا إِلَى الرَّسُولِ ، فَعَرَفَ فِيهَا الرَّسُولُ الشَّيْمَاءَ بِنْتَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ، الَّتِي طَالَمَا حَمَلَتْهُ وَلاَعَبَتْهُ وَهُوَ صَغِيرٌ يَرْضَعُ فِي بَنِي سَعْدٍ .

فَبَسَطَ الرَّسُولُ لِلشَّيْمَاءِ رِدَاءَهُ فَأَجْلَسَهَا عَلَيْهِ ، وَخَيَّرَهَا : إِنْ شَاءَتْ أَقَامَتْ عِنْدَهُ مُعَزَّزَةً مُكَرَّمَةً ، وَإِنْ شَاءَتْ مَتَّعَهَا وَرَدَّهَا إِلَى قَوْمِهَا . فَاخْتَارَتِ الرُّجُوعَ إِلَى قَوْمِهَا .

وَانْصَرَفَ وَفْدُ هَوَازِنَ بِنِسائِهِمْ وَأَبْنائِهِمْ بَعْدَ أَنْ قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ :
أَخْبِرُوا مالِكًا أَنَّهُ إِنْ أَتَانِى مُسْلِمًا رَدَدْتُ عَلَيْهِ أَهْلَهُ وَمَالَهُ ، وَأَعْطَيْتُهُ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ .

وَطَالَبَتْ قَبَائِلُ الْمُسْلِمِينَ الرَّسُولَ بِتَقْسِيمِ الْفَيْءِ – وَهُوَ مَا غَنِمُوهُ – وَكَأَنَّمَا خَشِيَ النَّاسُ أَنْ يَأْتِيَ مِنَ الأَسْبابِ مَا يَكُونُ فِيهِ نَقْصٌ لِنَصِيبِهِمْ مِنَ الْفَيءِ فَأَلَحُّوا فى ذٰلِكَ وَأَلْحَفُوا عَلَى الرَّسُولِ ، وَلاَحَقُوهُ وَهُوَ رَاكِبٌ يَقُولُونَ :
يَارَسُولَ اللهِ ، اقْسِمْ عَلَيْنَا مِنَ الإِبِلِ وَالْغَنَمِ .

وَمَازَالُوا يُلِحُّونَ حَتَّى أَغْضَبُوا الرَّسُولَ ، وَحَتَّى نُزِعَ عَنِ الرَّسُولِ رِدَاءُهُ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ مَرَّ بِجَانِبِهَا ، فَقَالَ لَهُمْ وَهُمْ يُلاَحِقُونَهُ غَاضِبًا :
يَاأَيُّهَا النَّاسُ ، رُدُّوا عَلَيَّ رِدَائِى ، فَوَاللهِ لَوْ كَانَ لَكُمْ بِعَدَدِ شَجَرِ تِهَامَةَ نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ عَلَيْكُمْ ، ثُمَّ مَا أَلْفَيْتُمُونِى بَخِيلاً ولا جَبَانًا وَلاَ كَذَابًا .

ثُمَّ أَخَذَ النَّبِيُّ بَيْنَ أَصَابِعِهِ وَبَرَةً – أَى شَعْرَةً – مِنْ سَنَمِ جَمَلٍ كَانَ

بِجَانِبِهِ ، وَهُوَ يَقُولُ :

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ واللهِ مَا لِى مِنْ فَيْئِكُمْ وَلاَ هٰذِهِ الْوَبَرَةِ إِلاَّ الْخُمُسُ ، وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ ؛ فَمَنْ أَخَذَ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقٍّ فَلْيَرُدَّهُ فَإِنَّهُ يَكُونُ عَلَى أَهْلِهِ عَارًا وَنَارًا وَشَنَارًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَقَسَّمَ النَّبِىُّ الْفَىءَ عَلَى الْمُقَاتِلِينَ جَمِيعًا ، وَخَصَّ الرُّؤَسَاءَ وَالْكِبَارَ الْحديثِى الْعَهْدِ بالإِسْلاَمِ مِنْ قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الأَعْرَابِ بِأَنْصِبَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْخُمُسِ الَّذِى يُخَصَّصُ للهِ ؛ وَذٰلِكَ تَأْلِيفًا لِقُلُوبِهِمْ ، وَاجْتِذَابًا لِنُفُوسِهِمْ نَحْوَ الإِسْلاَمِ .

وَكَانَ فى هٰذَا مَا أَرْضَى رُؤَسَاءَ قُرَيْشٍ وَرُؤَسَاءَ الْقَبَائِلِ ، وَطَيَّبَ نُفُوسَهُمْ ، وَمِنْ هٰؤُلاءِ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ ، وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو ، وَعُلَيْمُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ كَلَدَةَ ، وَغَيْرُهُمْ .

وَكَانَ فى هٰذا ما أَغْضَبَ الأَنْصَارَ ، وَنَالَ مِنْ نُفُوسِهِمْ ، إِذْ مُيِّزَ رِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَمُيِّزَ رِجَالٌ مِنَ الأَعْرَابِ ، وَلَمْ يُمَيَّزْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِشَىْءٍ . وَتَكَلَّمَ فى

ذٰلِكَ نَفَرٌ مِنَ الأَنْصَارِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : لَقِيَ – واللهِ – رَسُولُ اللهِ قَوْمَهُ .

وَأَبْلَغَ سَعْدُ بْنُ عبَادَةَ مَا بِنَفْسِ الأَنْصَار لِلرَّسُولِ . فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ : يَاسَعْدُ ؛ اجْمَعْ لِي قَوْمَكَ .

وَجَمَعَ سَعْدٌ الأَنْصَارَ وَأَتَاهُمُ الرَّسُولُ فَقَالَ :

يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ ؛ مَا قالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ ، وَمَوْجِدَةٌ وَجَدتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ ؟ ! أَلَمْ آتِكُمْ ضُلاَّلاً فِهَدَاكُمُ اللهِ ، وَعَالَةً فأغْنَاكُمُ اللهُ ، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلوبِكُمْ ؟ !

قَالَ الأَنْصَارُ : بَلَى ! ! اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ .

قَالَ الرَّسُولُ : أَلاَ تُجِيبُونَنِي يامَعْشَرَ الأَنْصَارِ ؟ !

قالُوا : بِمَاذَا نُجِيبُكَ يَارَسُولَ اللهِ ؟ ! للهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ .

قَالَ : أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ وَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدِّقْتُمْ : أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا

فَصَدَّقْنَاكَ ، وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ ، وَطَرِيداً فَآوَيْنَاكَ ، وَعَائِلاً فَآسَيْنَاكَ .

يَامَعْشَرَ الأَنْصَارِ ، أَوَجَدتُمْ فِى أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَجْلِ شَىْءٍ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهِ قَوْمًا لِيُسْلِمُوا ، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلامِكُمْ ؟ أَلاَ تَرْضَوْنَ - يا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ - أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ . وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللهِ إِلَى رِحَالِكُمْ ؟ ! فَوَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ ، وَلَوْسَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ .

اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ .

عِنْدَئِذٍ بَلَغَ التَّأَثُّرُ بِالأَنْصَارِ مَبْلَغَهُ مِنْ قَوْلِ الرَّسُولِ فَبَكَوْا وَهُمْ يَقُولُونَ : رَضِينَا بِرَسُولِ اللهِ قَسْمًا وَحَظًّا .

وَأُبْلِغَ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَخَرَجَ مِنَ الطَّائِفِ مُتَخَفِّيًا مِنْ أَهْلِهَا حَتَّى أَتَى الرَّسُولَ مُسْلِمًا ، فَرَدَّ عَلَيْهِ النَّبِىُّ أَهْلَهُ وَمَالَهُ ، وَأَعْطَاهُ الْمِائَةَ مِنَ الإِبِلِ الَّتِى وَعَدَ بِهَا .

وَخَرَجَ الرَّسُولُ مِنَ الْجِعْرَانَةِ إلى مَكَّةَ مُعْتَمِرًا . فَلَمَّا قَضَى عُمْرَتَهُ اسْتَخْلَفَ عَتَّابَ بْنَ أَسِيْدٍ عَلَى مَكَّةَ ، وَخَلَّفَ مَعَهُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ لِيُفَقِّهَ النَّاسَ فى دِينِهِمْ وَيُعَلِّمَهُمُ الْقُرْآنَ .

وَغَادَرَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَالْمُهاجِرُونَ وَالأَنْصارُ مَكَّةَ عَائِدِينَ إلى الْمَدِينَةِ . وَهُمْ يَشْكُرُونَ اللهَ عَلَى مَا أَكْرَمَهُمْ بِفَتْحِ مَكَّةَ ، وَيَحْمَدُونَهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ وَأَثْبَتَهُمْ بِهِ فى غَزْوَةِ حُنَيْنٍ ، بَعْدَ ما كَانَ مِنْ خَوْفِهِمْ وَانْخِذَالِهِمْ . حَتَّى جَاءَ فِيهِمْ قَوْلُ اللهِ :

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ . فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ) .

رقم الإيداع	١٩٩١ / ٨٦٣٣
الترقيم الدولى	ISBN 977 - 02 - 3533 - 4

١ / ٩١ / ٣٥٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

obeikandl.com